أهمية المذكرات الشخصية في كتابة تاريخ الجزائر المعاصر

بن رحال يمينة
أستاذ مساعد أجامعة المسيلة

إن تاريخ الجزائر حافل بالأحداث التاريخية عبر مختلف مراحله، فإذا وقفنا عند مرحلة الثورة المباركة، فإننا نجد تاريخها قد دونته مصادر أجنبية تمثلت في مقدمتها الكتابات الفرنسية، وهي تنقسم إلى قسمين، الأولى تضم كتابات تاريخية وردت في شكل تقارير متنوعة لجواسيس ورحـــالة أوروبيين والثانية عبارة عن مذكرات لقادة فرنسيين عسكريين،[1] كانوا أو كتاب ومؤرخين أمثال شارل أندري جوليان، شارل روبير أجيرون، وجلبار مني وغيرهم، فكتاباتهم حملت الكثير من المغالطات، فعلى سبيل المثال اعتبر بعضهم بأن الأحداث التي جرت في الجزائر خاصة في الفترة الممتدة بين 1954–1962 إنما هي عبارة عن حرب الجزائر Une Guerre d'Algérie ولم يعترف هؤلاء على الأقل بأنها حرب تحريرية خاضها شعب احتلت بلاده وسلبت منه سيادته، وطمست مقوماته الشخصية، ففي مؤلفاتهم غلب مصطلح حرب Guerre بدلا من ثورة Révolution، وهذا يعتبر نكران وعدم الاعتراف بالعمل الثوري ومحاولة طمس مآثر الشعب الجزائري وأمجاده، والهدف من ذلك هو التقليل من أهمية الثورة وتجريدها من الوطنية والروح الحماسية الثائرة.[2] وسلخها من بعدها الاستقلالي.

وهذا الأمر مفروغ منه لأن تاريخ الجزائر وثورتها المباركة عند المؤرخين الفرنسيين لم يكتب بأقلام جزائرية متشبعة بالروح الوطنية، وإنما كتب بأقلام أجنبية حاولت تغيير واقعها الحقيقي وتشويهه، خاصة وأن بعضهم قد اعتمد في دراسته على ما سمعوه من أخبار ثم تولى كل واحد توجيهها كيفما شاء وحسب الأغراض التي حددها لنفسه وهي أخبار صادرة عن السلطات الفرنسية.

ولا تستكمل الدراسة التاريخية بالاكتفاء فقط بما كتبه الغير من تاريخنا الوطني، لهذا فإن العودة إلى المصادر المحلية ضرورة ملحة لابد منها، خاصة وأن تاريخ الجزائر يحتاج لعدة فكرية وعلمية من أبنائه حتى يتخلص من الكتابات الأجنبية لا

سيما الفرنسية منها، والهدف منها الرد على التضليل والتزوير الذي لحق بصفحاته.

فبعد الاستقلال عرفت الجزائر ظاهرة كتابة المذكرات الشخصية والتي أصدرها مجموعة من قادة الثورة التحريرية، وكان من أشهرها مذكرات حسين آيت أحمد، فرحات عباس، عبد الرحمان فارس، ومحمد البجاوي وغيرهم، حيث كتبت باللغة الفرنسية وصدرت في باريس، وبقيت لمدة طويلة ممنوعة في الجزائر لأسباب سياسية.[3]

وفي نهاية الثمانينات انتعش هذا النوع من الكتابة مع صدور عدد من المذكرات في الجزائر باللغة العربية، ويعود ذلك لعدة عوامل منها وفرة جو من الحريات، وبروز الثقل التاريخي للثورة التحريرية على الصراع السياسي الذي عرفته البلاد.[4] وراح الاهتمام بالتاريخ الوطني يزداد يوما بعد يوم، لذلك تضاعفت المذكرات الصادرة باللغة الفرنسية وتخصصت فيها بعض دور النشر حتى أصبحت تعرف بها وترجم العديد منها إلى اللغة العربية،[5] حتى تعم الفائدة.

إذا كانت هذه المذكرات تحمل هذا القدر من الأهمية في كتابة تاريخ الجزائر وثورتها، فما تعريفها؟ وأين تكمن القيمة التاريخية لها؟ وكيف نتعامل معها؟.

لكتابة تاريخ الجزائر لابد من جمع المادة التاريخية من كافة المصادر الأصلية Les Sources، وهي الوثائق سواء أكانت منشورة أم غير منشورة، فالمذكرات الشخصية تدخل ضمن الوثائق الرسمية المنشورة، وهي مادة تاريخية أصلية.[6] تتمتع بأهمية خاصة لما ترسمه من صورة حية لأحداث عاشها أصحابها ودونوها وهم قاصدون إيصال معلوماتها إلى الأجيال الآتية، يتحدثون فيها عن الوقائع التي اشتركوا فيها فعلا أو شاهدوها مباشرة أو التي حملت إليهم من رواة ثقات معاصرين.[7]

وهي نوع من أنواع الكتابة التاريخية وثيقة الصلة بالسيرة الذاتية، والفرق بين السيرة الذاتية والمذكرات هو أن الأولى تروي قصة حياة الكاتب وتسجل خبراته ومنجزاته في المقام الأول، في حين أن المذكرات توصف الأحداث وتعللها وبالتالي فهي عبارة عن إدلاء شهادات لصناع القرار والحدث.

أهمية المذكرات الشخصية في الكتابة التاريخية:

1-المذكرات تعد إحدى المصادر الهامة التي تعتبر كمرجعيات أساسية لكتابة تاريخ الجزائر، فالمؤرخ لا يخترع الحوادث التي يقصها من ذهنه وخياله بل يستقيها من ينابيعها.[8]

2- توفر المذكرات معلومات تاريخية ثرية للمؤرخ، تساعده على فهم مجموعة من الوقائع والمواقف، ربما كان من الصعب حل رموزها في غياب هذه الشهادات.

3- المذكرات من المؤلفات التاريخية تحمل لنا في طياتها حقائق وأحداث متنوعة تضيء لنا فترة حاسمة من تاريخ الجزائر، كان ولا يزال يجهلها الكثير من القراء خاصة الأجيال الصاعدة، وبالتالي فهي من الوسائل المساعدة في الأبحاث التاريخية لها دور كبير في سد النقص الحاصل في المادة العلمية.

4- تحمل لنا المذكرات مجموعة من الوثائق الهامة سواء أكانت صورا أم مراسلات لبعض الشخصيات البارزة على مستوى الوطن أو الساحة الدولية، فهي تدعم كل بحث وبالتالي تسهل لنا عملية الإطلاع عليها والوصول إليها وخير دليل على ذلك ما تضمنته مذكرات أحمد توفيق المدني والشيخ محمد خير الدين وغيرهم.

5- تعطي لنا المذكرات رؤية خاصة لفترة معينة، فهي تفيدنا في تركيب الكثير من الموضوعات،[9] فنجد المؤلف يضحي بوقته ويكرس جهوده من أجل أداء مهمة تاريخية على أكمل وجه، والهدف منها هو خدمة وطنه وأمته وبالتالي أصبحت لنا مصدرا مهما في دراسة تاريخ الجزائر المعاصر،اعتمادا على ما ورد من شواهد تاريخية نادرة.

6- تكشف لنا المذكرات الشخصية عن أحداث ووقائع تاريخ الجزائر وثورته المباركة في مراحلها المختلفة وجوانبها المتعددة، حيث تقدم للقارئ وللمؤرخ صورا داخلية عن الحياة اليومية للمجاهدين، وتبرز الخلافات الإيديولوجية والصراعات حول القيادة داخل صفوف منظري ومسؤولي الثورة الجزائرية.[10]

7- صنعت المذكرات ديناميكية ثقافية لم تدم طويلا لأنها خرجت عن مسارها العلمي، والبحث عن الحقيقة التاريخية، كما وقعت وليس كما نريد لها أن تقع فرأينا على سبيل المثال كيف ساهمت مذكرات علي كافي في تنشيط النقاش والجدل حول بعض محطات الثورة الجزائرية.[11]

فمن المذكرات التي تناولت تاريخ الجزائر المعاصر نجد مثلا:

- مذكرات إبراهيم بن العقون:

وهي عبارة عن كتاب ألفه بعنوان "الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر"، جاء في ثلاثة أجزاء نشرت عن المؤسسة الوطنية للكتاب ج1 (1920-1936) سنة 1984، ج2 (1936-1945) سنة 1984، ج3 (1947-1954) سنة 1986.

تضمنت المذكرات سردا عن الوضع السياسي السائد في الجزائر خلال الفترة الزمنية المذكورة، وتطرق إلى مختلف نشاطات الزعماء والجمعيات الناشطة سياسيا أو دينيا، حيث قام بدور لا يستهان به في تاريخ الجزائر، كما تعرض إلى طريقتهم في التواصل مع الأحداث الوطنية والدولية، وبالتالي فهي مذكرات تعكس لنا حب وغيرة المؤرخ على بلاده، وهي من المصادر المهمة التي يعتمد عليها الباحث في تدوين تاريخ الجزائر.

-مذكرات الشيخ محمد خير الدين:

صدرت في جزأين الأول سنة 1985، والثاني عام 1986 عن مطبعة دحلب، الجزائر، تضمنت حديثا عن مختلف الأحداث التي عاصرها المؤرخ من حركة إصلاحية ونشاط جمعوي وسياسي، وهي تحمل في ثناياها مجموعة من الوثائق والصور التي توارثها أسلافه جيلا بعد جيل، وبالتالي فهي تعد من المصادر المهمة في كتابة تاريخ الجزائر.

-مذكرات أحمد توفيق المدني:

جاءت بعنوان "حياة كفاح" في ثلاثة أجزاء، ج1 في تونس (1905-1925) نشر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976. أما الجزء الثاني في تونس (1925-1954) صدر سنة 1977، أما الجزء الثالث فهو خاص بمرحلة الثورة الجزائرية،وهي تحمل الكثير من الاحداث التاريخية اضافة الى وثائق هامة من صور ورسائل لبعض الشخصيات البارزة،فقد دافع عن القضية الجزائرية في اشد أوقاتها .

-مذكرات حسين آيت أحمد:

جاءت مذكراته في كتاب عرف بمذكرات مجاهد، روح الاستقلال (1942-1952) سنة 1983، يحكي فيها عن طفولته في جبال جرجرة، كما تناول نضاله

الدؤوب في حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية، بالإضافة إلى نشاطات اخرى، بالإضافة إلى كتاب آخر سنة 1964 بعنوان "الحرب وما قبل الحرب" وفيها قدم الكاتب معلومات عن بداية التحضير للثورة الجزائرية.

-مذكرات علي كافي:

تناول فيها صاحبها حديثا عن الثورة التحريرية وظروف اندلاعها،كما دعمنا ببعض الوثائق ومعلومات عن الولاية الثانية باعتباره كان مسؤولا عليها، كما تناول فيها موضوع الحكومة المؤقتة والصراعات القائمة انذاك إضافة إلى اغتيال عبان رمضان،وغيرها من المواضيع.

ولا تكفي هذه السطور لذكر كل المذكرات التي تناولت تاريخ الجزائر وثورتها، وتبقى دائما من المصادر الأصلية التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابة التاريخ.

ولتوظيف المذكرات الشخصية والاستفادة منها بما يخدم البحث التاريخي،ضروري جدا أن نقف ونتخذ العديد من القواعد في طريقة التعامل معها يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

1-لا يمكن لأي باحث تاريخي أن يتحرى الصدق ويحترم الموضوعية،[12] في البحث ويكتب تاريخا أو يحكم على فترة معينة إلا إذا اطلع على وثائق ثرية حوتها تلك المرحلة، فالمؤرخ في كتابته للأحداث التاريخية قد يكون بعيد عن الموضوعية وتطغى بذلك النزعة الذاتية وبالتالي ضرورة الدراسة الواعية المتعمقة، بها نحاول أن نكشف عن أهدافه من الكتابة ومدى اعتقاده في صحة ما كتبه، بمعنى آخر يجب أن تتوفر دراسة دقيقة لاستخلاص الحقائق وهي مهمة بالغة العسر.[13]

2- ضرورة معرفة الظروف التي أحاطت بالمؤلف، فنجمع أوفر قسط من المعلومات عن المؤلف وعن ثقة الناس به وعن العصر الذي كتب فيه وعن الوثائق المشابهة التي روت نفس الحادث، بمعنى يجب أن نضع مجموعة من الأسئلة حول إن كان المؤلف قد كذب في روايته، فالأسباب الداعية للكذب أشهرها:

أ-أن يكون المؤلف قصد إلى التزييف لحاجة ما ،كأن يستفيد ماديا من هذا التزييف.

ب- أن يكون المؤلف قد وجد في وضع اضطره إلى هذا التزييف.

ج- أن يكون المؤلف مدفوعا بدافع البغضاء والكراهية لجماعة من الجماعات، دينية أو وطنية أو بدافع الاختلاف في الرأي مع مبدأ من مبادئ أو حزب من

الأحزاب، فيميل في هذه الحالة إلى تمجيد مبادئه أو مبادئ حزبه أو جماعته والحط من قيمة خصومه وتزييف أقوالهم. [14]

3- لا يجب أن نثق في رواية لمجرد أن صاحبها شاهد عيان، فشهادة العيان ليست بصحيحة في كل الحالات لأن صاحبها قد يخطئ وقد يكون عرضة لكثير من الأوهام، فمن الضروري ملاحظة الفترة الزمنية الفاصلة بين تاريخ الحدث وتاريخ التدوين، ذلك أن الذاكرة الشخصية أقدر على استحضار الأحداث القريبة زمنيا، أما الأحداث البعيدة تبقى باهتة الصورة في الذهن بل أن بعض التخيلات والتأويلات والانطباعات التي تحولت إلى يقينيات عند الكاتب قد يعتبرها حقائق تاريخية يصعب عليه فصلها عن الوقائع الحقيقية. [15]

4- ضرورة الانتباه إلى نزعة التفاخر والمباهاة التي تسيطر على النفس البشرية، ذلك أن الأشخاص الذين يستسلمون لهذه النزعة، يستغلون كل الفرص لأجل إثبات فاعلية دورهم في الأحداث المفصلية من تاريخ أمتهم مع أنه قد يكون دورا ضئيلا. [16]

5- المذكرات يعتمد صاحبها في كتابتها على الذاكرة، فهي قد تخون صاحبها حتى وإن كان في عز شبابه، هذا إن لم يستعن صاحبها بالوثائق والمستندات التي تثبت صحة قوله فهي تعزز كتابته بالدليل القاطع حتى لا يترك مجالا للشك.

6- الذاكرة كما وصفها بيير نورا لاتنتقي الا التفاصيل التي تريحها وتتغذى على ذكريات ضبابية،الأمر الذي يجعل المؤرخ مطالبا بتوخي الحذر التام عند تعامله مع الذاكرة بالحرص دائما على استجلاء رهاناتها الظرفية من خلال استحضار الظروف التي أنتجت فيها المذكرات أو قيلت فيها الشهادات.

7- ضرورة استخراج العوامل والقواعد التي تتحكم في صاحب المذكرات أو الشهادات قبل التعامل معها لأن معرفة هذه القواعد تسمح بتبيان مدى طغيان الذاتية أو الموضوعية في هذه الشهادات وبالتالي على الباحث أن يكون حذرا ولا ينساق مع صاحب الشهادة في المعلومات التي يوردها خاصة عن خصومه ودورهم في العديد من الأحداث، فضروري أن يتأكد من هذه المعلومات من مصادر وأطراف عديدة.[17]

8- على الباحث أن يمتلك القدرة الفائقة والكافية في التعامل مع هذه الشهادات وفق منهج علمي صارم ودقيق كي تتبين له الذين هم أقرب إلى الموضوعية من

عدمها، خاصة وأنه في أمس الحاجة لمختلف الشهادات الشفوية والمكتوبة من أجل تدوين تاريخ الجزائر وثورتها.

وفي الأخير يمكن القول بأن الذاكرة تبقى مصدر هام في كتابة تاريخ الجزائر وثورتها، لأن أصحابها كانوا ينقلون الأحداث من مكانها وزمانها ودونوها لتبقى شهادة حية للتاريخ وللأجيال التي تلي، ورغم ما يمكن أن تحويه من تناقضات مختلفة باختلاف كتابها إلا أن المؤرخ الحقيقي يجب عليه أن يخضع الحادثة للتحليل والتمحيص حتى يصل إلى حقائق تاريخية.

وعليه فإن تاريخ بلادنا ما زال في أمس الحاجة إلى مصادر متنوعة تحمل الكثير من الأحداث والمواقف التي لم يكشف عنها بعد، ولأجل تدوينه وكتابته كتابة موضوعية ومفيدة لابد من استثمار كل المصادر استثمارا دقيقا، خاصة وأن الكثير منها قد تنطمس آثارها وتزول دلالتها في ظروف معينة مثل ضياعها أو إتلافها أو تأثير عوامل الزمن عليها أو موت أصحابها ولا نستبعد الرغبة في التخلص منها عن عمد، فمع ضياعها أو فقدانها تضيع معها الأفكار والحوادث التي كانت في طياتها أسرارا ومعلومات كثيرة، تطرح إشكاليات مصيرية كان لابد من التعرف عليها.

الهوامش:

(1) غالي العربي: "رؤية منهجية لكتابة التاريخ العسكري"، مجلة المصادر، ع03، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954، 2000، ص 90.

(2) جمال قنان:دراسات وقضايا في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات متحف المجاهد،1994، ص 16.

(3) علاوة عمار وآخرون: "نصف قرن من البحث العلمي بالجامعة الجزائرية (1962–2012)، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسنطينة، 2013، ص 23.

(4) رابح لونيسي: "منهج التعامل مع الشهادات والمذكرات عند كتابة تاريخ الثورة (شهادات بن يوسف بن خدة نموذجا)"، مجلة العصور، ع 6–7، وهران، 2005، ص 27.

(5) علاوة عمار، المرجع السابق، ص 23.

(6) عادل حسن غنيم: في منهج البحث التاريخي، ط2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 39.

(7) ليلى الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1979، ص 159.

(8) نفسه، ص 151.

[9] عمار هلال: الملتقى المغاربي الأول المصادر والمراجع العربية لتاريخ الجزائر 1830–1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 86.

[10] علاوة عمار، المرجع السابق، ص 23.

[11] نفسه، ص 24.

[12] الموضوعية هي الوصول إلى الحقيقة دون تدخل العوامل الشخصية للباحث فلا يشوهها بنظرة ضيقة أو بتحيز خاص، بمعنى أن يستبعد الباحث العوامل الذاتية من عمله العلمي وينبغي عليه أن يطرح مصالحه وميوله واتجاهاته الشخصية جانبا وأن يعالج موضوعه بتجرد تام.

[13] محمود الحويري: منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001، ص 260.

[14] نفسه، ص 270.

[15] حسين بويدي: مذكرات علي كافي بين التأريخ وبناء الذاكرة الجماعية، أعمال الملتقى الوطني الثورة الجزائرية في الكتابات التاريخية المعاصرة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2014، ص 190.

[16] نفسه، ص 191.

[17] رابح لونيسي، المرجع السابق، ص 36.